القبْـوُ الزجـاجيّ

رسالة إلى «محمد الفاتح»

شعر / د.صابر عبد الدايم*

أيها الفاتح.. ضيَّعْنا مفاتيح المدائنْ!!!
ونسينا البحْر.. والموج وتهليل السفائنْ!!!
ونسينا الخيل والرمح.. وأسرار الكمائنْ
سورُة الفتح هجَرْناها.. وبدَّدنا صداها
وتراءت في حنايانا أنينا وحنينا
كل أشجار الفتوحات أراها
عارياتٍ منْ رؤاها
منْ ثمار المجْد...
في أوراقها جَفَّتْ دماءْ
كنتَ تَسْقيها شذاها
أيها الفاتح أقْبل... أنت ما زلت فتاها
اترع السيف من الغمد فقد تهنا وتاها!!!
لم يزلْ سيفك في القبْو الزجاجيّ سجينا
نائماً في غمده يحرس أسياف الخلافةْ!!!
و إلى جانبه سيف عليّ «ذو الفقار»
ذلك الباتر في كل غزَاةٍ سيرةَ الكفر... صداه وشغافَهْ
انظر الآن إليه...
ليس إلاّ أثراً يشهده «السُّيَّاح» من كُلِّ القفارْ!!!
وضعُوه حِلْية للزَّهْو.. واللهْو بأزْمان الفتوحات الكبارْ!!!
أيها الفاتح.. ضيَّعْنا مفاتيح المدائنْ!!!
...خالد... في عصرنا يسجن في قبرٍ زجاجيّ...
وللفاروقِ والصِّدِّيق ذيَّاك المصيرْ!!!
...هذه أسيافهم مثلومة تَنْعَى إلينا
حدَّها المغتال في جوف القبورْ!!!
أيها الفاتح أمسى السيف ظلاّ
ووشاحاً ساكناً فوق الصدورْ!!!
إنه أضْحى لدى الأتراك مرسومَ ضيافَهْ
إنه أصْبَح نقشاً فوق جدران الطلولْ
كل من يشهده...
يقرأ في جبهته عصْر روايات الأفولْ
... وأنا جئت إلى قصْرك ضيفاً ما معي إلاّ الهويّه
إنها «الله ولا ربَّ سواه»
إنها «لا إله إلاّ الله - محمد رسول الله»
...جئتُ والقلب بأبواب الفتوحات مُعَلَّقْ
جئت.. لكنْ
باب «إسْلاَمْبولَ» في وجْهي مُغْلَقْ!!
صدَّني عنْ بابك العالي
انكشاريٌّ بلا أي هُويَّهْ
جاء منْ أرض الشتات الهمجيَّهْ
...قلت إني..
من جنود الفاتح القائد حامي أرْض كل المسلمينْ
قال: في القاعة لا يوجَدُ إلاّ
بعضُ أشلاء من العهد الطعينْ
إنّها رائحةٌ مِنْ زَمنٍ
كان...صُعُوداً.. وانْحداراً.. وانكساراً بين أيدي الخائنين».
إنها أطلال تاريخ.. وأشباح رجال...
سكنوا القبْو الرخاميّ السجينْ!!!
رحلت ذاكرتي في مدن الشعْر...
... وأصْغت لأمير الشعراء
في شرودٍ وعَياء
«الله أكبرُ كَمْ في الفتْحِ مِنْ عَجَبِ
يا خَالِدَ التّرْكِ جدِّدْ خَالِدَ العَرَبِ»
أيّ فتحْ... يا أمير الشعر في عصر الفتوحات العقيمهْ؟
أيها الفاتح... «إنا... قد فتحنا لك فتحاً..
كان - بالحق - مبينا»...
... وأبو أيوب فوق السور ما زال يُكبِّرْ
الله أكْبر.. الله أكبر.. أالله أكبرْ
غُلب الرُّوم.. وأشجار الفتوحات تُهلِّلْ
...والنواقيس تلاشتْ
والجيادُ الصافناتُ المؤمناتْ
في ميادين الوغى تصهلُ... بالفَتْحِ تُحَمْحِمْ
وعلى الشاطىء تختال المآذنْ...
وتُصلِّي وتُسلِّمْ
إنه الماءُ يسبّحْ
والنجيمات تُسَبّحْ
والمنارات تسبّحْ
والمجاديف تسبّحْ
إنه اللهُ ... فسبّحْ باسم ربّكْ

(*) شاعر وناقد مصري، صدرت له عدة دواوين وكتب، يعمل الآن أستاذاً بجامعة أم القرى، معاراً من جامعة الأزهر.